الصراع الإسلامي البيزنطي الأول في البحر المتوسط
من النصف الأول من القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي
الجزء الأول: (دراسة في وسائل المسلمين الدفاعية البرية والبحرية عن السواحل الشامية والمصرية)

د. مراد خليفة المختار كورة
أستاذ مساعد بقسم التاريخ/ كلية الآداب . جامعة الجفرة
Korah73@yahoo.com

الملخص:-

في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي كانت الدولة البيزنطية هي القوة المسيطرة على عالم البحر المتوسط، إلا إنه في أواخر العقد الثالث من هذا القرن ظهرت قوة المسلمين التي تمكنت من طرد البيزنطيين من سواحل مصر وبلاد الشام، وتمكنت من الحفاظ عليها من هجمات الأسطول البيزنطي بفضل ابتكار وسائل دفاعية برية، أثبتت فاعليتها إلى حد كبير، وأخرى بحرية تمثلت في إنشاء الأسطول البحري الذي دخل في صراع مباشر مع الأسطول البيزنطي، وتمكن من غزو بعض الجزر البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وبذلك قضى على السيادة البيزنطية في البحر المتوسط.

Summary:-

In the late sixth and early seventh centuries AD, the Byzantine state was the dominant power in the Mediterranean world. However, at the end of the third decade of this century, the Muslim force appeared, and managed to expel the Byzantines from the coasts of Egypt and the Levant and was able to preserve them from the attacks of the Byzantine fleet thanks to the innovation of land defensive means that have proven to be highly effective. In addition to other defensive marine means which was establishing the naval fleet which went into direct conflict with the Byzantine fleet and was able to conquer some of the Byzantine islands in the eastern dock of the Mediterranean. Thus, The Muslim naval fleet could eliminate the Byzantine sovereignty in the Mediterranean.

المقدمة:-

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة ونوراً للعالمين، وعلى آله وصحبه وأتباعه الذين رفعوا راية الإسلام في البر والبحر. وبعد.

يتناول هذا البحث موضوع صراع القوى في البحر المتوسط بين البيزنطيين والمسلمين، وتمثل هذه الفترة حلقة مهمة من حلقات الصراع البحري الذي شهده عالم البحر المتوسط بين هاتين القوتين، ودخل به مرحلة من تاريخه امتدت من النصف الأول من القرن السابع وحتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وقد مر هذا الصراع الطويل بفترات مد وجزر تبعاً لظروف هاتين القوتين واشتمل **مرحلتين: الأولى** من النصف الأول من القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي، و**الثانية** من النصف الثاني من القرن الثامن وحتى نهاية القرن الحادي عشر، وما إن شغلت هاتين المرحلتين اهتمام الباحثين ممن اهتموا بموضوع البحر المتوسط، وصراع القوى فيه، حين تناولوا أحداث هذا الصراع على امتداد المرحلتين، إذ تبين أن بعضاً من فترات هاتين المرحلتين يمكن أن تبرز فيها ظروف وخصائص ونتائج محددة، تميزها عما سبقها وما يليها من فترات، لذا كان من الضروري أن تتجه الدراسات إلى التركيز على فترات بعينها من هذا الصراع الطويل.

وسوف يتناول هذا البحث مرحلة الصراع الأولى أي منذ الحملة البيزنطية على الإسكندرية، بوصفها أول حملة بحرية من قبل البيزنطيين على ما استقرت عليه حدود المسلمين بعد الفتح، وهي الخطوة التي أقدمت عليها الإمبراطورية البيزنطية –على ما يبدو– عندما تنبهت إلى أهمية إشراك القوة البحرية كأداة في الصراع مع المسلمين، لعلها تؤدي إلى تغيير مساره لصالحها، معلنة بذلك بدء هذا النوع من المواجهة بين الطرفين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد شهدت الإمبراطورية في ذات التاريخ أزمة كادت تنهي نفوذها على الجناح الغربي الأفريقي، في الوقت الذي كان فيه تطلع المسلمين للتقدم نحو هذا الجناح الغربي للإمبراطورية، وقد لعبت القوة البحرية للإمبراطورية دوراً أساسياً في الصراع الذي شهده هذا الجناح، لذا يعد هذا التاريخ تاريخاً حاسماً بالنسبة لطرفي الصراع، فهو يمثل بداية

فترة وقعت فيها أهم أحداث الصراع البحري بين البيزنطيين والمسلمين، كما شهدت ذروته. وهنا تكمن أهمية البحث ،حيث كانت أكثر فترات النشاط البحري الإسلامي كثافة، فقد شمل هذا النشاط أرجاء البحر المتوسط كافة، وكانت أبرزها نتائج، إذ أدت نتائجها إلى حدوث تغيير في الخريطة السياسية لعالم البحر المتوسط، تم تثبيته لفترة طويلة، كما كانت أكثرها تأثيراً على وضع الإمبراطورية كقوة في هذا الصراع، ومن هنا كانت أهمية تلك الفترة في الإطار الزمني الذي جاء تحديده تأتي في مقدمة الأسباب التي دفعت الباحث إلى اختيارها موضوعاً للبحث.

وما من ريب أن الطرفين قد خاضا ذلك الصراع البحري في تلك الفترة موضوع البحث في مواجهتين، لم تغب أحداث إحداها عن الأخرى، كما تأثرت كل مواجهة بخطوات أخرى وكذا نتائجها، وعلى ذلك فقد قسم الباحث موضوع الدراسة إلى **جزأين: الأول** سوف يركز على **(دراسة في وسائل المسلمين الدفاعية البرية والبحرية عن السواحل الشامية والمصرية)، والثاني** سوف يركز على **(دراسة في وسائل المسلمين الهجومية لمحاولات غزو القسطنطينية)**، ونظراً لحجم المادة العلمية، إذ لا يمكن تناولها في بحث واحد وذلك تمشياً مع قواعد النشر في المجلات العلمية، التي تفترض ألا يتجاوز عدد صفحات البحث عدداً معيناً، عليه سوف يتم دراسة كل جزء دراسة مستقلة متتابعة لتكتمل الفكرة، ويتحقق الهدف التي أعدت لأجله الدراسة، لذا سوف تقتصر هذه الدراسة على الجزء الأول؛ والذي تكمن أهمية دراسته في أنه يتيح الاطلاع على الوسائل، والأساليب، التي ابتكرها المسلمون للدفاع عن تلك المدن الساحلية، وعدم الاكتفاء بالوسائل والأساليب القديمة، وتكمن أهميته أيضاً في أنه يوجه أنظار الدراسين والباحثين للاهتمام بدراسة مثل هذه المواضيع، دراسات معمقة خلال مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة، للاستفادة منها اليوم في مواجهة المخاطر المشابهة التي تحيط بالدول الإسلامية.

وتكمن إشكالية البحث في إلى أي مدى نجحت هذه الوسائل والأساليب الجديدة المبتكرة في الدفاع عن المدن الساحلية في الشام ومصر، والحد من هجمات وغارات الدولة البيزنطية؟.

وتأسيساً على ما سبق سوف يتم تقسيم البحث إلى محورين:

الأول: وسائل الدفاع البرية ودورها في الحد من هجمات الأسطول البيزنطي على السواحل الشامية والمصرية.

الثاني: وسائل الدفاع البحرية ودورها في الحد من هجمات الأسطول البيزنطي على السواحل الشامية والمصرية.

ولدراسة هذا البحث سوف يتم التركيز على المنهج التاريخي؛ القائم على تتبع الأحداث وتحليلها لاستخلاص النتائج والدروس، والله من وراء القصد.

المحور الأول: وسائل الدفاع البرية ودورها في الحد من هجمات الأسطول البيزنطي على السواحل الشامية والمصرية.

ساورت المسلمون لأول عهدهم بفتح مدن الساحل حالة من عدم الاطمئنان بشأن هذه المدن، سواء لما قد تقدم عليه من الانتقاض، أم لما يمكن أن تتعرض له من هجمات مضادة من قبل البيزنطيين، وفي كلتا الحالتين كان توقع المسلمين لقدوم الخطر من جهة البحر، فبادروا بالأخذ بسبل الحيطة والحذر، فكانوا ((كلما فتحوا مدينة ظاهرة ،أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو، سربوا إليها الإمداد))[1]، وعندما أقدم الخليفة عمر بن الخطاب (13-23هـ/634-644م) على تنظيم شؤون الأمصار لدى زيارته للشام في أعقاب الفتح، كانت السواحل أيضاً محل عنايته، فورد عن مؤتمر الجابية؛ الذي عُقد في خريف عام 17هـ/639م ((قَسَّمَ عُمَرُ الأَرْزَاقَ، وَسَمَّى الشَّوَاتِيَ وَالصَّوَائِفَ*، وَسَدَّ فُرُوجَ الشَّامِ وَمَسَالِحَهَا، وَأَخَذَ يَدُورُ بِهَا، وَسَمَّى ذَلِكَ فِي كُلِّ كَوْرَةٍ، وَاسْتَعْمَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ عَلَى السَّوَاحِلِ مِنْ كُلِّ كَوْرَةٍ))[2]، يفهم من هذا أن تعيين عامل على السواحل فيه من التحديد لمسؤولية هذا العامل ومهامه، التي تنصب على اتخاذ تدابير الحيطة والحذر لحماية السواحل من هجمات السفن البيزنطية المفاجئة[3]. وكذلك اضطر معاوية عند ولايته أمر الشام (18-35هـ/639-656م) إلى لفت نظر الخليفة عمر إلى السواحل ،لإدراكه باستمرار الخطر القائم من جهتها، فبدأ عمرﷺ في وضع أسس سياسة

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ط1،شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار اقرأ، بيروت، 1992، ص210.

* الشواتي والصوائف: هي الغزوات الفصلية التي كانت تخرج للغزو في أراضي العدو من قواعد محصنة، وقد انتظمت على الحدود وكانت تخرج عادة مرتين في العام إحداها في الصيف والأخرى في الشتاء. انظر: فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة، (د.ت) ج2، ص 40.

(2) نفسه، ج2، ص490.

(3) نفسه، ص334.

دفاعية شاملة ،حددتها أوامره إلى كل من معاوية في الشام، وعمرو بن العاص في مصر، كان اللجوء فيها إلى وسائل الدفاع البرية كإجراءات تحتمها ضرورة الإسراع بتنفيذ هذه السياسة، وقد جاءت إشارات عدة في المصادر العربية إلى تلك الوسائل البرية، نوردها هنا بغرض تتبع السياسة الدفاعية في تلك المرحلة ،متابعين مراحل تطورها والظروف التي اقتضت هذا التطور للتعرف على كيفية تدرج المسلمون في استخدام هذه الوسائل البرية ،وكيف تنوعت عناصرها وأدواتها؟

جاء في رد عمر على معاوية تحديداً لملامح تلك السياسة، فـ ((كتب [أي عمر] إليه [إلى معاوية] في مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها* واتخاذ المواقيد* لها))[4]، ولما تولى عثمان ﷺ الخلافة جاءت أوامره بالاستمرار في نفس السياسة، لما لها من جدوة في مقارعة العدو ،وحفظ البلاد فـ ((كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل، وشحنها، واقطاع من ينزله إياها القطائع ... ويبني المساجد، ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته))[5].

أما فيما يخص مصر ((كان عمر بن الخطاب يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية ،فكانت الولاة لا تُغفِلها وتُكَنف رابطتها ولا تأمن الروم عليها))[6]، وصار على هؤلاء الولاة المضي في سبيل تنفيذ هذه السياسة بخطوات واسعة متوسلين بتلك الوسائل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قام معاوية في هذا السبيل بجهد كبير ،فنسبت إليه المصادر أغلب ما شهدته هذه السواحل وحصونها من رم وشحن بالمقاتلة، وربما كان من بينها تلك المدن التي قيل إنها فتحت فتحاً يسيراً، وكان إهمال حصونها سبباً في ضعف مقاومتها، فتقول الرواية ((إن يزيد أتى بعد فتح دمشق صيدا وعرقَه وجُبَيل وبَيروُت وهى سواحل ،وعلى مقدمته أخوه معاوية ،ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من

* المناظر: مفردها منظرة وهى أبراج حراسه ومراقبة تبنى على الأماكن العالية المشرفة على البحر من أجل رؤية المراكب قبل اقترابها من الساحل ومنها تعطى الإشارات بقدوم المراكب: ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، 1955م، ج5، ص 203.

* المواقيد: هي ما يوقد فيها النيران، لإرشاد المركب في البحر على مسافة بعيده. اليعقوبي: كتاب البلدان، بيروت، 1988م، ص97.

(4) البلاذري: المصدر السابق، ص210.

5() نفسه.

(6) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، مكتبة مدبولي، ص130.

أهلها))[7]، فقام معاوية بتجديد بناء ما تهدم من الحصون ،وشحنها بالمقاتلة، كما أنشأ حصوناً جديدة، ورد الحديث عنها في أكثر من إشارة نذكر منها إشارة عند البلاذري تقول ((ورد "عُبَادة" [بن الصامت] والمسلمون السواحل، ففتحوا مدينة تعرف ببَلدة، على فرسخين من جَبلَة عنوة، ثم إنها خربت وجلا عنها أهلها، فأنشأ معاوية بن أبى سفيان جبلة، وكانت حصناً للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين حمص وشحنها ... وبنى معاوية لجبلة حصناً خارجاً من الحصن الرومي القديم))[8]، وتابع فقال ((افتتح عبادة والمسلمون معه أَنطَرطُوس وكان حصناً ثم جلا عنه أهله، فبنى معاويةَ أنطَرطُوس ومصرها، وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمَرَقيّة وبُلنُياس))[9]، ثم أضاف قائلاً ((افتتح أبو عبيدة [بن الجراح] اللاذقية وجبلة وَأنطَرطُوس على يدي عباده بن الصامت، وكان يوكل بها حفظة إلى انغلاق البحر*، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إياها، شحنها وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل))[10].

وفي إطار تنفيذ تلك الأسس التي حددتها أوامر الخليفة عمر قام عمرو بن العاص والى مصر (21-23هـ/ 641- 643م) بوضع نظام خاص لحامية الإسكندرية فـ ((قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس ،وربع في السواحل، والنصف مقيمون معه، وكان يصير بالإسكندرية خاصة، الربع في الصيف بقدر ستة أشهر ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر، وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه واتخذوا فيه أخائذ))[11].

وعن تدابير سكنى هؤلاء المرابطة تبين أنه لما كانت الظروف في ذلك الوقت غير مواتية لبناء رباطات، فخصص لها عمرو الدور والقصور التي تركها الروم عند جلائهم عن المدينة، فكانت الدور تعطى في أول الأمر

(7) البلاذري : المصدر السابق، ص ص208-209.
(8) نفسه، ص217.
(9) نفسه.
* كان العرب يسمون الفترة التي تتوقف فيها الملاحة في فصل الشتاء فترة انغلاق البحر، وهى تبدأ بشهر أكتوبر حتى نهاية شهر فبراير. المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم، مديحه الشرقاوي، القاهرة، 1998م، ج2، ص 361.
(10) البلاذري : المصدر السابق، ص217.
(11) ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص ص92-93.

للعريف ورجاله ،عندما يأتون للمرابطة ،حتى إذا ما انتهت دورتهم الصيفية حلت محلهم فيها حامية الشتاء، وأوضحت الرواية أنه عندما أدى نظام الشيوع هذا إلى خراب الدور لتركها دون ترميم، أو صيانة، لاحظ عمرو هذا العيب وعمل على تلافيه، فرأى أن تؤول المنازل لساكنيها ولبنيهم ممن كانوا فيها من قبل عند قفول المرابطة[12]، وهذا بالفعل ما يفهم من قول ابن عبد الحكم ((فكانت الدار تكون لقبيلتين أو ثلاث وكانوا يسكنونها حتى إذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها))[13].

يفهم من هذا أنه في هذه المرحلة المبكرة لم يكن قد تم بعد إقامة أماكن خاصة بالمرابطة، كان الاعتماد على إقامة المنارات في السواحل، لتكون بمثابة أبراج للمراقبة (مناظر) ووسائل لإرسال إشارات التحذير والاستعداد (مواقيد) وذلك تنفيذاً لما أشار به الخليفة عمر بن الخطاب في أوامره إلى الولاة.

استمرت الاستعانة بهذه الوسائل حتى تعرضت سواحل الشام في عام 24هـ/645م لهجمات البيزنطيين، ثم أعقب ذلك تلك الحملة التي تعرضت لها الإسكندرية عام 25هـ/646م، فجاء الحرص البالغ والتشديد من قبل الخليفة الثالث عثمان (23-35هـ/644-656م) على ضرورة إتمام تنفيذ هذه السياسة، بل وزيادة وسائلها، فجاءت توجيهاته إلى عبد الله بن سعد وإليه على مصر (24- 35هـ/ 645- 655م) ((يأمره أن يلزمها رابطة لا تفارقها ،وأن يدر عليهم الأرزاق، ويعقب بينهم في كل ستة أشهر))[14]، كما أطلق يد معاوية في العمل على النحو ذاته مع استخدام وسائل أكثر فاعلية، فقيل ((لما استخلف عثمان كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل، وشحنها وإقطاع من ينزل إياها القطائع ففعل))[15]، وبمثل ذلك أمره عندما فتح أنطاكية، وبعض مدن سواحل الشام (دمشق وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت)[16]، وزاد على ذلك بأن عثمان ((أمره أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزا جيوشاً سوى من فيها من الرتب،

(12) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967، ص ص80-81.
(13) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص93.
(14) البلاذري : المصدر السابق، ص322.
(15) نفسه، ص210.
(16) نفسه، ص209 وص234.

وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ... ثم أن الناس بعد أن انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية))[17].

يبدو أن المسلمين كانوا يخشون في أول الأمر الإقامة في الموانئ، والمدن الساحلية، التي كانت هدفاً لغارات البيزنطيين، لذا حاول معاوية اتباع سياسة إقطاعهم الأراضي، لا لتكوين طبقة من المزارعين، بل لتدعيم موقف المحاربين المرابطين في الثغور الخطرة، فأغرى العرب بتملك الأراضي ليحل مشكلة قلة سكان السواحل[18]، ولكن يبدو أن العرب لم يتحمسوا لهذه الإغراءات في البداية ،لذلك لجأ معاوية إلى الاستعانة بغير العرب فأسكن جماعة كبيرة من اليهود بعض حصون طرابلس بعد فتحها[19]، وفي نفس الوقت ((كان... يوجه في كل عام إلى طرابلس جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملاً ،فإذا انغلق البحر قفل وبقى العامل في جُميّعة منهم يسيرة))[20]. لقد أثبتت تلك السياسة صلاحيتها، إذ لم تسجل المصادر إقدام البيزنطيين على مهاجمة السواحل الإسلامية.

المحور الثاني: وسائل الدفاع البحرية ودورها في الحد من هجمات الأسطول البيزنطي على السواحل الشامية والمصرية.

أدرك المسلمون أن وسائل الدفاع البرية لم تكن وحدها بكافية لصد الهجمات البيزنطية على السواحل الشامية والمصرية، وأن هذه السياسة لن تكتمل أركانها إلا بوجود سفن حربية قبالة هذه السواحل تمنع اقتراب سفن العدو، وألا يقتصر الأمر على الصد فقط إذا ما تمكنت قوات من النزول إلى هذه الشواطئ، ومن ثم كانت الضرورة تقضى تدبير وسائل أخرى في سبيل إتمام سياسة الدفاع.

(17) نفسه، ص210.
(18) فتحي عثمان : المرجع السابق، ح 2، ص 338.
(19) البلاذري: المصدر السابق، ص209.
(20) نفسه.

أ- بناء الأسطول البحري الإسلامي.

لا شك في أن المسلمين عندما استولوا على موانئ مثل انطاكية وقيسارية وعسقلان، قد استولوا كذلك على ما خلفه البيزنطيون في مرافئها من سفن، كان من الممكن أن يجروها بمن كان يجرى بها من أهل تلك البلاد من قبل، وأقر مؤرخو العرب أنفسهم – باعتماد المسلمين في تأسيس نواة أسطولهم على أهل المدن المفتوحة، قال ابن خلدون: ((إنه لما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم، تقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً تكررت ممارستهم للبحر وثقافته ... فأنشأوا فيه السفن والشواني* وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح))[21].

وكانت مصر من البلاد المفتوحة التي اضطلعت بالقيام بدور رئيسي في إنشاء نواة الأسطول الإسلامي[22]، وساعد على القيام بهذا الدور توفر المواد الخام اللازمة لصناعة السفن بها ، مثل أخشاب السنط الصالحة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز الذي يصلح للمجاديف[23]، ومعدن الحديد لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس[24]، وحشيشة يقال لها الدقس يتخذ منها حبال للسفن تسمى تلك الحبال القِرفِس[25]، وظلت مصر ودار صناعتها الكبرى بالإسكندرية تتحمل وحدها عبء صناعة قطع الأسطول الإسلامي، وبدا تحمس واليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح لفكرة إنشاء الأسطول من خلال ذلك التنسيق الذي تم بينه وبين معاوية – والى الشام – فكانت ترد أخشاب الشام إلى مصر لتصنع منها السفن في دار الصناعة بالإسكندرية، وكانت أخشاب الشام من منتجات غاباتها من الأنواع التي تقوم عليها هياكل السفن وأجزائها الرئيسة[26]، كما ثبت الاستعانة بأقباط مصر لتزويد الأسطول الناشئ

(*) الشواني: مفردها شيني وهو المركب الطويل. ومن أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي لحمل المقاتلة للجهاد. وكانوا يقيمون فيها أبراجاً وملاذا للدفاع والهجوم. انظر : سعاد ماهر: المرجع السابق، ص 352.

(21) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق المستشرق أ. م. كاترميد، بيروت، 1992،ج2،ص 34.

(22) Bell, H.I., "Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum", Der Islam, vol. 2, 3, 4. (1911-113)

(23) المقريزي: المصدر السابق، ج3، ص110.

(24) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1957م، ص136.

(25) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، السلسلة الجغرافية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص66.

(26) Christides, V., "Milaha" Encyclopedia of Islam. new ed. 1993, vol. VII, p. 43.

بذوي الخبرة في الملاحة وشؤون البحر[27]، وظلت شهرة أقباط مصر كملاحين وبحارة في الأسطول الإسلامي متصلة لفترة طويلة، وكما تم الاستعانة أيضاً بخبرة ملاحي أهل الشام[28].

تلك كانت الأسباب التي أدت إلى اتخاذ هذه الخطوة والظروف التي تهيأت لإتمامها، أما النتائج التي عادت على المسلمين وأثر تلك الخطوة على أحداث الصراع فسيتضح من تتبع ما قام به هذا الأسطول من نشاط وما سعى إلى تحقيقه من أهداف.

ب-جهود الأسطول الإسلامي في السيطرة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

- **غزو جزيرة قبرص.**

هيأت خطوة إنشاء الأسطول الإسلامي استكمال أركان سياسة الدفاع من أجل ضمان سلامة السواحل، ومنعها من أن تكون هدفاً سهلاً للهجمات البحرية البيزنطية، وكان معاوية قد نبه منذ عهد الخليفة عمرﷺ إلى أهمية الإقدام على الغزو في البحر، غير أن سياسة عمر حينها كانت تؤثر الكف من الغزوات التي قد يبدو منها ولو نذر يسير من المخاطرة بأرواح المسلمين[29]، وكذلك كان رد الخليفة عثمانﷺ حين طلب منه معاوية الإذن في المرة الأولى، وعندما كرر عليه الطلب وأصبحت الظروف مهيأة أذن له بعد أن شرط عليه قائلاً: ((فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا))[30]، وأن ((لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل))[31]، وهنا يبرز سؤال لماذا كانت قبرص أول هدف يخرج إليه الأسطول الإسلامي في أولى حملاته؟.

(27) Bell, *op .cit*., vol II, p.281, vol. III p. 372.
(28) Christides: "Milaha". p. 43.

(29) سعاد ماهر: المرجع السابق، ص64.
(30) البلاذري: المصدر السابق، ص239.
(31) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج2، ص601.

لم تفد المصادر البيزنطية بشيء عن سبب اختيار قبرص بالذات، في حين ذهبت بعض المصادر العربية أن الإقدام على غزوها كان بسبب غارات البيزنطيين البحرية على الشام، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين في الطريق ،وملجئاً يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب[32].

ولمعرفة كيف تمت تلك الغزوة الأولى والوقوف على ما حققته من نتائج، تبين عند الرجوع إلى المصادر أنه لم ترد في المصادر البيزنطية إلا رواية قصيرة أوجزها ثيوفانيس، ورددها بعده المؤرخ أجابيوس، وضع ثيوفانيس غزو الجزيرة ضمن أحداث عام 649م/33هـ وقال: ((قام معاوية في هذا العام بالهجوم على قبرص في ألف وسبعمائة سفينة، واستولى على قسطنطية وقام بتدمير سائر الجزيرة، وعندما علم بقدوم القائد كاكوريزوس على رأس قوة كبيرة غادر إلى أرادوس))[33]، أما أجابيوس فقد ذكر عدد السفن نفسه ولكنه ذكر أن معاوية افتتح الجزيرة وسبى منها خلقاً ثم غادرها للسبب نفسه[34].

أما في المصادر العربية فقد تعددت الروايات بشأن أحداث هذه الغزوة ،وكذا نتائجها حتى لدى المؤرخ الواحد، ولما كانت هذه المصادر قد جعلت غزو الجزيرة يتم أكثر من مرة، فقد حدث خلط بين أحداث تلك الغزوتين، مما جعل من الصعب استخلاص أحداث الغزوة الأولى ونتائجها.

جاءت رواية البلاذري – نقلاً عن الواقدي تقول: ((غزا معاوية بن أبى سفيان غزوة قبرس الأولى، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها ... فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة ... وذلك في سنة 28 بعد انحسار الشتاء، ويقال في سنة 39، فلما صار المسلمون إلى قبرس فأرقوا إلى ساحلها بعث إليهم أركونها [أي حاكمها] يطلب الصلح ،وقد أذعن أهلها به فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها في كل عام، وصالحهم الروم على مثل ذلك فهم يؤدون خراجين، واشترطوا أن لا يمنعهم المسلمون من أداء الصلح إلى الروم، واشترط عليهم المسلمون أن لا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين بسير عدوهم من الروم، فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم

(32) إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون–البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية–، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م، ص81 –82.
(33) Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. by Harry Turtledove, Philadelphia, 1982. p. 43.
(34) Agapius, Kitab Alunwan, Patrologia Orientalis, T.VIII, Seconde Partie, Paris, 1911, p. 481.

يعرضوا لهم ،ولم ينصرهم أهل قبرس ،ولم ينصروا عليهم. فلما كانت سنة 32هـ أعانوا الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزاهم معاوية سنة 33 في خمس مائة مركب، ففتح قبرس عنوة فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم، وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة ... وبعض الرواة يزعم أن غزوة معاوية الثانية لقبرس في سنة 35))[35]، وقال في رواية أخرى: ((حدثني هشام بن عمار الدمشقي أن معاوية بن أبي سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امرأته، ففتحها الله فتحاً عظيماً، وغنم المسلمون غنماً حسناً، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في أيامه صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار، وعلى النصيحة للمسلمين، وإنذارهم عدوهم من الروم هذا أو نحوه))[36].

أما الطبري فقال ضمن أحداث سنة 28هـ ((فمما ذكر أنه كان فيها فتح قبرص على يد معاوية، غزاها بأمر عثمان إياه، ... ثم قال: فأما أبو معشر فإنه قال: كانت قبرص سنة ثلاث وثلاثين))[37]، ثم عاد وقال: ((قال أبو جعفر لما غزا معاوية قبرص، صالح أهلها...))[38]، ذاكراً الشروط نفسها تقريباً.

وقال ابن الأثير مثل ذلك حين أورد إنه ((قيل في سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرص على يد معاوية، وقيل سنة تسع وعشرين، وقيل سنة ثلاث وثلاثين وقيل أنها غزت سنة ثلاث وثلاثين))[39].

من هذه الروايات المختلفة يتبين أن غزو معاوية لقبرص كان عام 28 أو 29هـ، وهو ما اعتبره أحد المؤرخين تاريخ الغزوة الأولى، كما اتفقت المصادر على تاريخ آخر لغزو قبرص وهو عام 33هـ، بينما عده المؤرخان الآخران تاريخاً للغزوة الثانية، لذا أقر المحدثون ممن اعتمدوا على المصادر العربية حدوث الغزوتين[40].

(35) البلاذري: المصدر السابق، ص ص239-240.
(36) نفسه، ص241.
(37)الطبري: المصدر السابق، ج2، ص600.
(38) نفسه، ج2، ص602.
(39) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1965، ج3، ص95.
(40) فتحي عثمان: المرجع السابق، ج2، ص28.

بينما ورد في تعليق آخر على الصلح أنه في طلب معاوية من أهل قبرص هذا المبلغ من المال، وعدم معارضة استمرار أداء مثله للبيزنطيين، ما يدل على أنه أحسن معاملة القبارصة، أما في تعقيبه على الغزوة الثانية فيرى في الإجراءات التي اتخذت من ترك قوة من اثني عشر ألف رجل في مدينة شيدت لهم خصيصاً، بالإضافة إلى تثبيت الجزية التي فرضت عليهم في المرة الأولى، يرى أنه في هذه المرة كانت النية معقودة على احتلال الجزيرة احتلالاً دائماً، وأنهى تعليقه بأنه هكذا تحقق للمسلمين أول نصر بحري، كما قضوا على قاعدة بحرية بيزنطية قريبة جداً من الشاطئ الشامي[41]، والاستفادة من ثرواتها، وخاصة الغابية من أخشاب، كانوا في حاجة ماسة إليها لتزويد أسطولهم بالسفن، وعلى هذا الأساس علل أحد المحدثين اختيار معاوية لأهل بعلبك لتوطين جماعة منهم في الجزيرة، لأنهم من الصناع والفنيين في صناعة السفن من أجل بناء قطع جديدة للأسطول الإسلامي باستخدام أخشاب قبرص[42]، على هذا النحو يمكن النظر إلى خطوة غزو قبرص وما حققه من نتائج للمسلمين.

- **غزو جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط**

تشجع المسلمون بما حققوه من نتائج في غزوتهم البحرية الأولى نحو قبرص، فأصبحت الجزر البيزنطية القريبة من السواحل الإسلامية أهدافاً يتطلعون لغزوها، محاولين توجيه هجماتهم إليها، وقد سجلت المصادر البيزنطية هذه المحاولات إما متزامنة مع غزو قبرص، أو في أثرها، فقد ورد عن ثيوفانيس ((أنه أثناء عودة أسطول معاوية على أثر علمه بقدوم أسطول بيزنطي إبان غزوة قبرص، أبحر نحو أرادوس، ورسى بقواته على شاطئ كاستيلوس، إحدى قرى الجزيرة الصغيرة، محاولاً فتحها بكل الوسائل ولما فشل أرسل إلى أهلها بغية إرهابهم أسقفاً يدعى ثوماركوس لكي يسلموا المدينة، أو يعقدوا معه صلحاً، أو يرحلوا عن جزيرتهم، ولكن أهل الجزيرة قبضوا على الأسقف بمجرد وصوله

(41) علي فهمي: البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي، فصل بكتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية، 1973م، ص ص284-285.

(42) Kyrris, C, "The Nature of Arab-Byzantine relations in Cyprus from the middle of 7th to the middle of the 10th century A.D.", Graeco-Arabica, 3, 1984, p. 156.

ولم يخضعوا لمعاوية، وعلى أثر فشل هذا الحصار عاد معاوية إلى دمشق عندما حل الشتاء))[43]، وفي العام التالي 649-650م / 29-30هـ تمكن من الاستيلاء عليها ((واشترط جلاء سكانها إلى حيث يريدون ثم أحرق المدينة ودمر أسوارها وترك الجزيرة خالية من السكان))[44].

كذلك أورد أجابيوس عن هذه الجزيرة رواية تؤدى نفس المعنى[45]، ولكنه أسماها أرواد- ربما كان تحريفاً عن اسمها أرادوس- إذ هي غير جزيرة أرواد التي تقع بالقرب من القسطنطينية، والتي عرفها ابن الأثير بأنها قريب القسطنطينية[46]، وفي عام653م/32-33هـ استأنف معاوية عملياته البحرية، ونتيجة لوطأة الغزوات البحرية وشدتها ذكرت المصادر البيزنطية أن الإمبراطور قنسطانس أرسل قائده بروكوبيوس إلى معاوية طلباً للسلام، حيث تم عقد هدنة لمدة عامين وذلك في عام 650م/30هـ[47]، وبعد انقضاء المدة استأنف معاوية عملياته البحرية ،وقام بالهجوم على جزيرة رودس، وتدمير تمثالها الشهير[48]، وكانت رودس بحكم موقعها تشكل خطراً كبيراً على أطراف الشام المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور[49].

- **موقعة ذات الصواري:** أثار نشاط الأسطول الإسلامي قلق الإمبراطورية البيزنطية، وتشير المصادر البيزنطية إلى ما يعكس هذا القلق من ذاك النشاط في حادثة رواها ثيوفانيس في أحداث عام (654-655م/ 32-33هـ) حين قال: ((أعد معاوية في هذا العام قوة بحرية كبيرة استعداداً للقيام بحملة ضد القسطنطينية، وكانت هذه الاستعدادات تتم في طرابلس، وقد لاحظها أخوان من المسيحيين يدعوان أبناء بوكيناتور ممن يعيشون في طرابلس، عندئذ أثارتهم الحمية والغيرة الدينية، فأسرعوا نحو سجن المدينة، حيث كان يحتجز بعض الأسرى البيزنطيين، وقاما بفتح الأبواب وانقضوا على أمير المدينة وقتلوه مع رجاله ثم أحرقوا ما كان تم إعداده من عتاد، ثم رحلوا إلى بلاد البيزنطيين، وعلى الرغم من

(43) Theophanes, *op .cit*. p. 43
(44) Ibid.
(45) Agapius, *op .cit*. p. 481
(46) ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص246.
(47) Theophanes, *op .cit*. p. 44
(48) Theophanes, *op .cit*. p.44; Agapius, *op .cit*., p.482; Georgius, Chronicon Breve, Patrologia Graeca, Belgium, 1976, t. 100, p. 862.
(49) إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق، ص90.

ذلك لم توقف هذه الحادثة الاستعدادات وقام معاوية، الذي كان يقوم بحملة ضد قيصرية قبادوقيا، بتعيين أبى الأعور قائداً للحملة البحرية))[50].

وسواء أصحت هذه الرواية أم لا فقد رأت الإمبراطورية البيزنطية في خروج هذه الحملة فرصة لمواجهة الأسطول الإسلامي فعقدت عزمها على هذه المواجهة.

وبشأن هذه المعركة البحرية الأولى وُجد أن الروايات البيزنطية كانت أقل تفصيلاً ومتشابهة فيما بينها إلى حد كبير، لذا يمكن البدء بهذه الروايات وعرض ما ورد بها من معلومات.

بدأ ثيوفانيس روايته في أحداث عام 654 – 655م قائلاً: ((اتجه أبو الأعور إلى فوينيكس في ليكيا، حيث دارت معركة بحرية مع الإمبراطور قنسطانس وقواته... وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يقم بأية استعدادات لمثل هذه المعركة، إلا أنه أمر الأسطول بالاشتباك، وعندما التقى الجمعان، انهزم البيزنطيون واختلط ماء البحر بالدم البيزنطي، وقام الإمبراطور باستبدال ملابسه مع شخص آخر، ثم قام أحد أبناء "بوكيناتور بنقل الإمبراطور من السفينة الخاصة به إلى سفينة أخرى منقذاً إياه على نحو غير متوقع، وحين اتخذ مكانه في سفينة الإمبراطور ومعه ذلك الشخص الوفي الذي ارتدى ثياب الإمبراطور مفتدياً إياه بحياته، أقدما على قتل كثيرين فقام الأعداء بقتلهما، أما الإمبراطور الذي تمكن من الهرب على هذا النحو فقد تم إنقاذه وترك رجاله وأبحر عائداً إلى القسطنطينية))[51].

وجاءت رواية أجابيوس تتحدث أيضاً عن خروج من أطلقت عليه اسم أبى العود إلى فونيقية التي على ساحل ليقيه، وأشارت إلى أنه بعد هزيمة الروم كاد قسطوس (قنسطانس) أن يغرق وأعقبت بأنه لحق بصقلية[52].

أما رواية جورج الراهب فقد اتفقت مع روايتي المؤرخين السابقين في أن أسطولاً إسلامياً أبحر إلى فوينيكس، لكنه جعل قائده معاوية، كما ذكر أنه عندما تقابل مع الأسطول البيزنطي وعلى رأسه الإمبراطور قنسطانس دارت المعركة بينهما، لكنه زاد بإيراد تفصيله ،مختلفة بعض الشيء، هي أن مؤامرة أعدت ضد الإمبراطور أخبره بها أحد

(50) Theophanes, *op .cit*. p. 45.
(51) Theophanes, *op .cit*. p. 45.
(52) Agapius, *op .cit*. p. 484.

المخلصين له فتم إبداله بشخص آخر، وقفل عائداً إلى القسطنطينية في قلة من رجاله، وهكذا تم إنقاذه على نحو غير متوقع[53].

أما المصادر العربية فقد تعددت فيها الروايات واتفقت في بعض المعلومات، وأغفلت تماماً بعضاً آخر، ذكر ابن عبد الحكم أن ((ذا الصواري كانت في سنة أربع وثلاثين ،وأن عبد الله بن سعد لما نزل ذا الصواري أنزل نصف الناس مع بسر بن أبى أرطأة سريه في البر، فلما مضوا أتى آت إلى عبد الله بن سعد فقال : ما كنت فاعلا حين ينزل بك هرقل في ألف مركب فافعله الساعة، قال غير الليث إنما هو ابن هرقل...))، ثم رجع إلى حديث الليث الذي قال ((وإنما مراكب المسلمين يومئذ مائتا مركب ونيف ... وبعد التشاور، قال عبد الله اركبوا بسم الله ،فركبوا وإنما في كل مركب نصف شحنته ،وقد خرج النصف الآخر إلى البر مع بُسر فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب، وتأخر هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأنباء فقال ما فعلوا ؟ قالوا قد اقتتلوا بالنبل والنشاب، فقال: غَلَبتَ الروم ثم آتوه، فقال: ما فعلوا ،قالوا: قد نفد النبل والنشاب فهم يرتمون بالحجارة ،قال: غَلَبتَ الروم ثم آتوه ،فقال: ما فعلوا قالوا نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف قال غُلبتَ الروم))[54].

اختلف الباحثون حول تحديد المكان الذي وقعت فيه معركة ذات الصواري، فبعضهم رأى أنها وقعت بالقرب من الإسكندرية[55]، وهذا الرأي تخالفه الروايات الأخرى حتى رواية ابن عبد الحكم الأولى التي أطلقت على المكان اسم ذا الصواري، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً للأخشاب التي تصنع منها الصواري[56]، وهذا الاسم ينطبق على المكان الذي حددته المصادر البيزنطية في ليكيا بآسيا الصغرى، حيث تكثر تلك الأخشاب ،وهو ما يؤيده أغلب الباحثين[57]، وإذا انتقلنا إلى مصدر آخر نجد الطبري يورد عن هذه الواقعة أكثر من رواية، قال في إحداها: ((في قول الواقدي كانت غزوة الصواري سنة أربع وثلاثين))، ثم قال ((إن أهل الشام خرجوا عليهم معاوية بن

(53) Georgius, *op. cit*. pp.862-863.

(54) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 129.

(55) في مقدمة هذا الفريق، سعاد ماهر: المرجع السابق، ص84.

(56) أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة دار الكتاب، بيروت، 1972، ص29.

(57) منهم فتحي عثمان: المرجع السابق، ج2، ص30.

أبى سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ... وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط مذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب فالتقوا هم وعبد الله بن سعد ،فأمن بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك بين صواريها))[58].

يشوب هذه الرواية بعض الخلط في ما ورد فيها من معلومات، فبخصوص معاوية وخروجه على أهل الشام، فلم يكن ذلك إلى ذات الصواري، إذ كانت هذه الموقعة لقاءً بحرياً، أما خروج معاوية في غزوة فكان على رأس حملة برية هي تلك التي أشار إليها ثيوفانيس، وجعل وجهته قيصرية قبادوقيا[59].

هذا وقد جاء في رواية ابن الأثير أيضاً في ذكر سبب هذه الواقعة، وسير أحداثها مثل ما جاء عند الطبري، لكنه قال في نهايتها ((وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع))[60].

وأخيراً أورد المسعودي رواية مقتضبة جاء فيها ((أنه لما التقى عبد الله بن سعد مع ابن هرقل في البحر فكانت على قسطنطين، فعطبت مراكبه ،وهلك أكثر رجاله، ونجا في مركب، فوقع في جزيرة صقلية، وسميت هذه الغزوة ذات الصواري، لكثرة المراكب وصواريها ،وكان ذلك في سنة 32 للهجرة))[61].

من هذا يتبين أن بعض الروايات العربية اتفقت مع الرواية البيزنطية على تاريخ وقوع المعركة وهو عام 34هـ/654م ،لكنها لم تفد فيما يتعلق بمكان المعركة، بل على العكس تسببت في خلق نوع من الخلط، خاصة رواية المسعودي التي جعلت ذات الصواري سبباً لتسمية الغزوة ،وليست اسماً للمكان – كما ذكرت أغلب المصادر –، وقد أيدت المصادر العربية ما جاء في المصادر البيزنطية فيما يتعلق بوصول المسلمين إلى المكان كان أولاً ،ثم جاء البيزنطيون إليهم، أما بخصوص الدافع لخروج الإمبراطور البيزنطي فلم تكن المصادر العربية أيضاً ذات فائدة في هذا الشأن، ومع ذلك فمن خلال ما ورد في ثنايا هذه الروايات، ومما أشارت إليه المصادر البيزنطية، ثم من خلال ما سبق

(58) الطبري : المصدر السابق، ج2، ص619.

(59) Theophanes, *op .cit*. p. 45.

(60) ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص58.

(61) المسعودي: التنبيه والإشراف، طبعة ليدن، 1893م، ص87.

هذه الواقعة من أحداث، نستطيع أن نبحث عن هذا الدافع، فمنذ بدأ الأسطول الإسلامي نشاطه بغزو قبرص، ومن أجل مواصلة هذا النشاط لم يكن بد من العمل على تنمية هذا الأسطول وتدعيم قدراته، لذا يكون في خروج هذا الأسطول إلى ذلك المكان للحصول على الخشب اللازم لصناعة المزيد من السفن ،سبباً مقبولاً بالنظر للمكان وما يحويه، ومن جهة أخرى الخشية من استنزاف غابات الشام.

فسواءً كان لهذا السبب المحدد، أم ذاك السبب العام ،فإن نشاط هذا الأسطول في حد ذاته كان قد أصبح أمراً يثير قلق البيزنطيين، وكان من الطبيعي خروج الأسطول البيزنطي لملاقاته في محاولة لتوجيه ضربة لهذا الأسطول ،لوقف خطره المتنامي، وكانت تلك هي الفرصة التي كان يبحث عنها البيزنطيون.

أما فيما يتعلق بنتائج هذه المعركة بالنسبة للطرفين، حقيقة أنه لم يستطع المسلمون متابعة نشاطهم البحري، واستثمار هذا النصر، كما لم يستطع البيزنطيون بدورهم استرداد عنصر المبادأة في استخدام القوة البحرية ضد المسلمين، وذلك بسبب الظروف التي أعقبت المعركة بالنسبة للطرفين، مما جعل التفكير في عقد هدنة ضمنية فيما بينهما أمراً متوقعاً،[62] ريثما تزول تلك الظروف.

تلك كانت النتائج الأولية للمعركة، لكن – في الوقت ذاته– أثبت هذا اللقاء البحري الأول، وهو الذي زعزع السيادة البحرية للإمبراطورية البيزنطية، أو بالأحرى مس مكانة تلك السيادة، إذ جعل مسألة انفراد الإمبراطورية البيزنطية بالسيادة البحرية موضع شك، أثبت أن التفوق البحري على المسلمين لم يعد من الممكن استعادته ،إلا بإعادة النظر في القدرات البحرية البيزنطية الدفاعية ،والهجومية على السواء، وهو ما وجه إليه قنسطانس نشاطه بالفعل، فعمل على إعادة تنظيم الأسطول، وتطوير مؤسسته العسكرية[63]، كما ركز جهوده في تأمين أراضي الإمبراطورية في

(62) Lewis, A., Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100, Princeton, 1951,p. 57.
(63) Rodgers, w. Naval Warfare under Oars – 4th to 16th centuries, Maryland, reprinted 1996, p. 35.

الجبهة الجنوبية في آسيا الصغرى، لدرء ما قد يقدم عليه المسلمون من نشاط حربي جديد، ثم ذهب إلى صقلية ليقوى جبهة دولته الغربية ضد أي زحف إسلامي قد يبدأ من مصر[64].

في أعقاب اللقاء البحري الأول تم الاتفاق بين الطرفين عام 658-659م على عقد هدنة أتاحت للطرفين التفرغ لما يواجه كل منهما من ظروف – وذلك كما ذكر ثيوفانيس [65]. بيد أنه لم يغب أثناءها عن الطرفين – على ما يبدو – أن المواجهة بينهما لازالت مستمرة، إذ ما أن انتهت هذه الظروف، بالنسبة للطرف الإسلامي بوصول معاوية لمنصب الخلافة (41-60هـ/661-680م) حتى عادت المصادر البيزنطية – في العام التالي مباشرة – تسجل أن المسلمين استأنفوا هجماتهم على أراضي الإمبراطورية البيزنطية في أسيا الصغرى ،ودمروا عدداً من المناطق ،وأخذوا أعداداً كبيرة من الأسرى[66]، كما بدأت المصادر العربية في متابعة ذكر أخبار إرسال الغزوات البرية السنوية ،للغزو في أراضي الإمبراطورية البيزنطية[67].

أما بالنسبة للطرف الآخر، فعلى الرغم مما كان يشغله من ضرورات حربية في جبهات أخرى، ومن ذلك انشغال الإمبراطور قنسطانس في حملته لتقوية النفوذ البيزنطي في الجناح الغربي للإمبراطورية في إيطاليا، والعمل من قاعدته في صقلية على إعاقة الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا، مما يوحي بالأهمية التي مازالت تحظى بها تلك المناطق بالنسبة للإمبراطورية ،من أجل الحفاظ على سيادتها ،لا سيما البحرية في البحر المتوسط [68]، في حين كان ابنه قسطنطين يسير أمور الإمبراطورية في جناحها الشرقي، حتى قتل أبوه في صقلية فتولى الحكم بنفسه[69]، ويبدو أن فترة انشغال المسلمين ،وكذا الهدنة وما وفرته من أموال ،أتاحت الفرصة أمام قنسطانس وابنه لإعادة بناء المؤسسة العسكرية وخاصة البحرية[70].

(64) إبراهيم أحمد العدوي : المرجع السابق، ص107

(65)Theophanes, *op .cit*. p. 46.
(66) Ibid. p. 47.

(67) الطبري : المصدر السابق، ج3، أحداث عام 42 وما بعدها، ص173 وما بعدها.

(68) Lewis, *op .cit*. Naval … pp. 58-59.
(69)Theophanes, *op .cit*. p. 50.
(70) Rodgers, *op .cit*. p. 35.

إذ في تلك الآونة سجلت المصادر العربية دون البيزنطية أنه في عام 49هـ/669م ((خرجت الروم إلى السواحل))[71]، فما كان من معاوية إلا أن اتخذ عدة إجراءات بشأن تأمين السواحل، منها نقل أقوام ((من الزط والسيابجة إلى سواحل الشام وأنطاكية))[72]، ومن قبلهم كان قد نقل قوماً من فرس بعلبك، وحمص ،وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا[73]، وكانت صناعة السفن مقتصرة على مصر ،فأمر بعمل دور صناعة على طول مدن السواحل ،وشحنها بالصناع والنجارين[74]، وكان الإجراء الأخير يهدف إلى تدعيم القوة البحرية، بالاستفادة من دور الصناعة، والصناع بالشام ،وإعادة تشغيلهم، لتزويد الأسطول الإسلامي بمزيد من السفن ،استعداداً للمضي بخطى واسعة في تنفيذ تلك الاستراتيجية ،التي تهدف إلى نقل ميدان الصراع إلى داخل الحدود البيزنطية عن طريق مواصلة الغزوات البرية ،بالتزامن مع استئناف الغزو البحري، إذ أكد تعرض السواحل الإسلامية لهذه الغارة أن الخطر سيظل قائماً ما دامت القسطنطينية تعمد إلى استخدام قوتها البحرية ضد المسلمين كلما استطاعت، وطالما أن مصدر الخطر هو القسطنطينية فلن يكف هذا الخطر إلا بالوصول إلى مصدره، وهذا ما سوف يتم دراسته في الجزء الثاني والذي تم الإشارة إليه في المقدمة بعنوان: **(دراسة في وسائل المسلمين الهجومية لمحاولات غزو القسطنطينية)**.

(71) البلاذري: المصدر السابق، ص198.
(72) نفسه، ص501.
(73) نفسه، ص197.
(74) نفسه، ص198.

الخاتمة.

بدت الإمبراطورية البيزنطية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي القوة المسيطرة على عالم البحر المتوسط، وقد مارست الإمبراطورية السيادة عليه بما تملكه من أدوات تلك السيادة، غير أن النظام الدفاعي الذي سعت الإمبراطورية في تطبيقه في أثناء مواجهتها للخطر الفارسي لم يثبت أمام الخطر الجديد، ألا وهو خطر المسلمين ،الذي ظهر في أواخر العقد الثالث من هذا القرن، حين فرضت الضرورات العسكرية الدخول في مواجهة مباشرة مع البيزنطيين، كانت النتيجة أن حسمت جيوش المسلمين البرية هذه المرحلة من المواجهة لصالحهم، عندئذ تنبهت الإمبراطورية إلى ضرورة اللجوء إلى قوتها البحرية في محاولة من جانبها لتغيير نتيجة الصراع لصالحها. في حين لوحظ أن الإمبراطورية لم تلجأ في صراعها مع المسلمين إلى قوتها البحرية إلا بعد أن فرض المسلمون وجودهم، وكان في امتلاك تلك القوة ما أتاح لها البدء بالدخول في صراع بحري معهم ،اضطرتهم إلى خوض غماره، ولكن المسلمون استجابوا سريعاً إلى متطلبات هذا الصراع، وهذا ما ثبت من خلال تتبع مراحل المواجهة الأولى، حين تبين أن المسلمين انتهجوا في بدايتها سياسة دفاعية قائمة على الاعتماد على وسائل برية متاحة، وعلى الرغم من أن هذه السياسة أثبتت نجاحها، إلا أن المسلمين لم يتوقفوا طويلاً عند هذه المرحلة، حين ثبت لهم أن أركان سياسة الدفاع لن تتحقق، إلا عندما تتوفر القدرة على صد أي هجوم على السواحل الإسلامية ،وهو ما نجحت فيه سياسة الاعتماد على الوسائل البرية، لذا وجدوا الحاجة إلى امتلاك أسطول يضمن استكمال أركان الدفاع، أدرك المسلمون أن الفرصة مهيأة لإنشاء الأسطول فبادروا باستثمارها، حين اختصوا مصر ببناء قطع الأسطول في دور صناعتها ،بعد إعادة تشغيلها بخبرات أهلها ،من فنيين ،وصناع ،وبما يرد عليها من خشب الشام، مما ساعد على إتمام هذه الخطوة سريعاً، فصار الاعتماد على هذا الأسطول ليؤدي دوره في حماية السواحل الإسلامية من أية هجمات بيزنطية، ثم أصبح بإمكان

المسلمين بعد امتلاك تلك الأداة ،ومع استمرار المواجهة البرية مع الإمبراطورية – من خلال الشواتي والصوائف – الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الغزو.

من أجل هذا الغرض الدفاعي وهو إبعاد خطر هجمات البيزنطيين عن السواحل الإسلامية، جاءت خطوة استهداف ما يقع تحت السيطرة البيزنطية من مناطق قريبة من الحدود الإسلامية، فصارت جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط أهدافاً للبحرية الإسلامية ،وكانت قبرص أولى هذه الأهداف، ثم تلاها رودس وقوس وكريت، الأمر الذي تسبب في إثارة البيزنطيين، الذين وجدوا الفرصة للعمل على وقف هذا النشاط، حيث دارت أولى معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي، والأسطول البيزنطي، الذي خرج لملاقاته، في ضوء هذه الظروف يمكن تفسير حدوث واقعة ذات الصواري، بالإضافة إلى نتائجها التي أشارت إليها أغلب الدراسات، وهي تحطيم التفوق البحري البيزنطي، إذ جعلت مسألة انفراد الإمبراطورية بالسيادة على الحوض الشرقي موضع شك، فقد تبين أيضاً أنها أظهرت للإمبراطورية أن التفوق البحري على المسلمين لم يعد من الممكن استعادته، إلا بإعادة النظر في القدرات البحرية الدفاعية والهجومية للإمبراطورية.

التوصيات:-

- القيام بإجراء دراسة متكاملة ومعمقة لتاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيين على أن تكون مقسمة لفترات ومراحل وأن تعتمد على المصادر والمراجع العربية والأوروبية لاستقراء وجهات النظر.
- القيام بدراسات تاريخ العلاقات بين المسلمين والأوروبيين تركز على الجوانب الحضارية والثقافية والاجتماعية والتجارية.

قائمة المصادر والمراجع:-

أ- المصادر:-

1- ابن الأثير: عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630/ 1233م)، الكامل في التاريخ، 13 جزء، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1965م.

2- الإدريسي: أبو عبد الله محمد الشريف (ت حوالى 548هـ/1154م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بيريس، الجزائر، 1957م.

3- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت 279هـ/892م) فتوح البلدان، ط1،شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار اقرأ، بيروت، 1992م.

4- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، المقدمة، تحقيق المستشرق أ. م. كاترميد، مكتبة لبنان، بيروت، 1992م.

5- الطبري: أبو جعفر محمد بن جير (ت 310هـ/923م)، تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الثالثة، 6 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

6- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت 257هـ/871م)، فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، مكتبة مدبولي (د . ت).

7- ابن الفقيه: أبى بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت حوالي 340هـ/951م)، مختصر كتاب البلدان، السلسلة الجغرافية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

8- المسعودي: أبى الحسن على (ت 346هـ/957م)، التنبيه والإشراف، طبعة ليدن، 1893م.

9- المقريزي: تقى الدين أبو العباس أحمد (ت 845هـ/1442م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم، مديحه الشرقاوي، القاهرة، 1998م.

10- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/1229م)، معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، 1955م.

11- اليعقوبي: أبو العباس أحمد بن إسحاق (ت 292هـ/904م)، كتاب البلدان، بيروت، 1988م.

ب- المراجع :-

1- إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون-البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية-، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.

2- أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة دار الكتاب، بيروت، 1972م.

3- سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م.

4- علي فهمي: البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي، فصل بكتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية، 1973م.

5- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، القاهرة، (د.ت).

ج- المراجع الأجنبية:-

1- Agapius, Kitab Alunwan, Patrologia Orientalis, vol. VIII, Seconde Partie, Paris, 1911.
2- Bell, H.I., "Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum", Der Islam, vol. 2, 3, 4. (1911-113).
3- Christides, v., "Milaha" Encyclopedia of Islam. new ed. vol. VII, 1993.
4- Georgius, Chronicon Breve, Patrologia Graeca, Belgium, 1976.
5- Kyrris, C, "The Nature of Arab-Byzantine relations in Cyprus from the middle of 7th to the middle of the 10th century A.D.", Graeco-Arabica, 3, 1984.
6- Lewis, A., Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100, Princeton, 1951.
7- Rodgers, w. Naval Warfare under Oars – 4th to 16th centuries, Maryland, reprinted 1996.
8- Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. by Harry Turtledove, Philadelphia, 1982.